بين أنفا والدار البيضاء

عبد العزيز ابن عبد الله

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أنفا كانت مدينة زاهرة قبل القرن السابع الهجري كما كانت مركزا للقراصنة ومجمعا خصبا للجنان والبساتين وكان بطيخ أنفا مشهورا بالجودة تتلقفه الحواضر الكبرى كفاس وقد استولى عليها البرتغال عام 876 هـ وهو عام احتلال أصيلا تقريبا وهدموا أنفا ثم عادوا إليها في حدود 920 هـ إلا أن صاحب الاستقصا يقول بأن احتلالها تم في حدود 874 هـ حيث ظلت مهجورة أزيد من 40 سنة ثم جددوا بناءها واستقروا بها إلى حدود 1154 هـ (الاستقصا ج 2 ص 2 159).

والسنة التي استولى فيها البرتغاليون على المعمورة أي 1515/921 هي تقريبا سنة عودتهم إلى أنفا حيث سموها Casabranca ويزعم (منويل) أن الاحتلال البرتغالي للمدينة استمر إلى عهد المولى عبد الله بن المولى اسماعيل (الاستقصا ج 2 ص 172) كما يلاحظ القنصل الفرنسي شيني Chènier

وكذلك كايي Caillè (ان اسم أنفا تغير إلى الدار البيضاء أيام سيدي محمد ابن عبد الله الذي توفي عام 1204 هـ ويؤكد ذلك ما كتبه الرحالة الدنماركي هوست Host حوالي 1174 هـ/1760 م.

وأنفا هي مدينة النمل حسب مذكرة في وثائق دوكاستر (السعديون ج 3 ص 358) نزهة المشتاق للادريسي (وصف افريقيا ص 48).

وكانت مركزا للرماية فيها ما يسمى بالقريبيات أي الاغراض البحرية المنصوبة للرماية (الاستقصا ج 4 ص 247).

كما كانت مهاجرا لسكان مدن أخرى حيث توفي بها ابن رضوان الوزير صاحب القلم الأعلى وكاتب أبي عنان المريني المتوفي عام 733 هـ/1332 م وكذلك عبد السلام بن زروق العرائشي عام 763 هـ/1361 م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد تولى قضاءها محدث حافظ اقرأ في مالقة ومراكش هو عمران بن موسى بن ميمون الهواري المتوفي عام 648 هـ) مما يدل على أنها كانت بين الحواضر الهامة التي استحقت تولية قاض في مثل أهمية ابن ميمون على رأسها مع أن القضاة كان عددهم محصورا في أهم الحواضر.

وقد سكنها ابن عصفور على بن أبي الحسين بن مومن بن محمد الاشبيلي الحضرمي. حيث توفي عام 669 هـ/1270 م ـ 1971 م وقد سكن مراكش ثم تونس وهو حامل لواء العربية بالأندلس وتلميذ ابن الشلوبين.

(فوات الوفيات ج 2 ص 2 93
شذرات الذهب ج 5 ص 330

وفيات ابن قنفذ (667 هـ)/ عنوان الدراية ص 188/كشف الظنون ص 1822 / بغية الوعاة ص 357 / صلة الصلة ص 142

ملحق بروكلمان ج 1 ص 546

الإعلام للمراكشي ج 6 ص 46 (خ)

مصنفاته :

1 ـ الممتع في التصريف

2 ـ المقرب في النحو

3 ـ المفتاح والهلال

4 ـ السالف والعذار

5 ـ شرح الجمل

6 ـ شرح المتنبي

7 ـ شرح الحماسة

8 ـ سرقات الشعراء

9 ـ شرح كتاب سيبويه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويظهر أن أنفا كانت آنذاك مدينة آهلة ذات قيمة اقتصادية حيث كان بها وال للجباية هو عبو من بني الترجمان لقيه بها ومدحه ذو الوزارتين ابن الخطيب السلماني. (الإعلام للمراكشي ج 4 ص 5).

وكانت تشكل أواخر القرن الهجري الماضي إقليما واحدا مع الجديدة التي كانت تسمى المهدومة بعد أن سميت مانزاغان وكان عاملها عام 1293 هـ هو محمد بن ادريس الجراري كما كان عاملا عليها في عهد جلالة الحسن الأول عبد الله بن قاسم حصار السلاوي.

والواقع أنه بعد أن هدم البرتغاليون أنفا بقيت أنقاضا يلتجىء إليها البدو وأحيانا موردا للماء تنهل منها السفن والمراكب ويظهر أن دارا بيضاء أي مبيضة بالجير أو الكلس كانت على الشاطىء آنذاك وقد اتخذها البحارة البرتغاليون صوة أو منارة للاهتداء بها في البحر فلذلك أطلقوا عليها اسم Casabranca ثم سماها الأسبان Casablanca والسلطان سيدي محمد بن عبد الله هو الذي جدد بناء الأسوار المهدمة ولعل ذلك بعد جلاء البرتغاليين عن الجديدة عام 1183 هـ/1769 م وقد عمل محمد الثالث آنذاك على دعم التحصينات بين العرائش والرباط والجديدة والصويرة الجديثة العهد بالتأسيس فأسس بالدار البيضاء صقالة قوية لحمل بطارية مدفعية وعمر المدينة بالإدالة من شلوح حاحة وعبيد البخاري بمكناس ومازال أحد مساجد المدينة يحمل اسم جامع الشلوح إلا أن المدينة كانت إلى أوائل القرن الماضي حسب رواية رحالين أجانب مخيمات أكثر منها بناءات تعسكر فيها حركات المخزن كمرحلة بين الرباط ومراكش على غرار فضالة والمنصورية وكانت الطريق الساحلية قد تأسست آنذاك بين فاس ومراكش في حين كانت تمر قبل من الأطلس (أزرو - خنيفرة - بني ملال - مراكش) حيث كانت تمتد (تامسنا) وبذلك لم يعرف إقليم الدار البيضاء وميناؤها أي نشاط اقتصادي قبل تأسيس هذه الطريق الساحلية بفضل مجهود الأسرة العلوية المالكة التي طورت مصادر ومنافذ التجارة الخارجية ولذلك سمح محمد الثالث للتجار الأجانب بالاستقرار في جميع مدن الساحل عاملا على خلق حركة تبادل هامة تسمح بإقرار ضرائب جديدة واحتكار تجاري لصالح بيت المال.

وتامسنا هي الناحية الواقعة بين نهري أم الربيع وأبي رقراق وامتدت إلى تادلا وكانت عاصمتها شالة وأطلقت بعد ذلك على إقليم الدار البيضاء وكانت مركزا للبرغواطيين.

وبرغواطة قيل بالراء وقيل باللام حسب ابن هشام اللخمي إلا أن ابن حزم في الجمهرة رسمها بالراء ويقال للبرغواطيين البرباطيين نسبة إلى برباط بالأندلس ويصل بعض المؤرخين البرغواطيين بالباغاطيين Baquates لا سيا بعدما عثر عام 1919 في وليلي أي شمال شرقي الاقليم البرغواطي على كتابات تشهد بقرب هذا الاقليم من منطقة الباغاطيين.

ويظهر أن أنفا كانت هذا العهد مركزا لتجارة الحبوب كأهم بضاعة كان المخزن قد خولها رخصة بذلك منذ عام 1197 هـ/1782 م لشركة اسبانية بقادس ثم عام 1204 هـ/1789 م. لشركة أخرى بمدريد هي Compaña de Los Cinco Cremios Mayores

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولكن السلطان الولى سليمان أقفل الميناء عام 1209 هـ/ 1794 م بعد ثورة عامل الشاوية الذي كان يقطن بالمدينة ونقل إلى الرباط التجار المسيحيين الذين كانوا قد استقروا بها ولم يفتح الميناء من جديد إلا عام 1246 هـ/1830م في عهد المولى عبد الرحمن بن هشام حيث عاد إليها التجار الأجانب عام 1258 هـ/1842 وخاصة عام 1266 هـ/1852 من بينهم التجار الفرنسيون الذين كانوا يبحثون عن الصوف الخام للتحرر من السوق الانجليزية عن طريق الشركة الفرنسية للوديف Compagnie Française Lodève التي تأسست منذ عام 1852 بالدار البيضاء وقد عملت على التحرر من تبعية السوق الانجليزية وأسست لها فروعا في العرائش والرباط.

ثم التحق بهم انجليز جبل طارق والالمان والبرتغاليون والإسبان وقد استقر أول نائب قنصل أوربي بها عام 1171 هـ/1857 ومنذ ذلك تضخمت الجالية الأوربية وأصبحت بواخر شركة Paquet ترسوا بالميناء وتطور رواج التجارة فبلغت عام 1324 هـ/1906م ما قدره 14 مليون فرنك ذهبي وتجاوز نشاط المرسى حركة ميناء طنجة نفسه.

وقد تطورت الملاحة البخارية منذ عام 1883 عن طريق ست شركات كان لها عامل مأمور في ميناء الدار البيضاء يضمن خاصة حمولة لعودة الباخرة ولكن هؤلاء العملاء كانوا يديرون مشاريع تجارية ودور تأمين ملاحي انجليزية وفرنسية وألمانية كما كانت للشركات الملاحية دور تجارية كبرى كذلك مثل شركة (باكي) التي كانت لها مستغلات فلاحية.

وعلى إثر قرض 1322 هـ/1904 م ومؤتمر الجزيرة الخضراء عام 1324 هـ/1906 أصبح موظفون فرنسيون يراقبون ديوانة الدار البيضاء وكذلك الاشغال التي كانت تقوم بها شركة فرنسية لإصلاح الميناء مما أقلق قبائل الشاوية التي اصطدمت عام 1325 هـ/1907 م بالعمال الأوربيين فتدخلت باخرة فرنسية وعمت الفوضى وانبثق الانتهاز للخوض في الماء العكر وتعرض الملاح لهجمات الفوضويين بإثارة الدساسين الأجانب لتفسح فرنسا لنفسها المجال من أجل قنبلة المدينة يوم 5 غشت 1907 حيث وصل أسطول فرنسي بعد يومين فأنزل بالشاطىء ألفين من الجند بقيادة الجنرال (درود) كما وجهت إسبانيا أسطولا آخر وجنودا واحتل الجيش الفرنسي منطقة الشاوية وشبت الأحداث المفتعلة التي أدت إلى فرض عقد الحماية عام 1912 ولكن أبي الله إلا أن تكون الدار البيضاء منطلقا لثورة الملك والشعب عام 1953.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكانت المعاهدات السرية قد عقدت بين فرنسا وإسبانيا وانجلترا لاقتسام إفريقيا الشمالية شرقا وغربا (أي من مصر إلى المغرب الأقصى).

ونضرب أمثلة للمواد التي نفق سوقها في المدينة وأرباضها :

فالحبوب بدأت تجارتها بالدار البيضاء منذ سنتي 1855 ـ 1856 بإشراف عملاء فرنسيين من دار باستري Pastré de Marseille لتموين جيش الشرق في القرم وبعد انتهاء الحرب تحررت السفن البخارية وأسهمت في دعم العلاقات التجارية البحرية والواقع أن الدار البيضاء انقلبت منذ عام 1858 حسب بوميي من قرية خلال أربع سنوات إلى مدينة صغيرة جميلة مبيضة الأسوار بأزقة حديثة البناء تعلو جانبيها دور ومخازن واسعة.

أما الصوف ففي بداية عام 1858 حظر المخزن تصديره للخارج فانزعجت الجالية الأوربية بالدار البيضاء ثم سمحت الحكومة المغربية بالوسق عام 1860 لسنة واحدة وقد تقاعست آنذاك الشركات الأوربية عن ترويج أموال في تربية الاغنام خاصة بعد الازمة الطارئة اثر الحرب الإسبانية المغربية عام 1859 ـ 1860 بالإضافة إلى ظهور الكوليرا عام 1860 ثم عام 1868 وبينهما حدوث مجاذبات في عامي 1863 و1865 في الشاوية بين مديونة وزناتة Beaumier : Le choléra au Maroc - Sa marche au Sahara Jusqu'au Sénégal en 1868, Bulletin Sté Géog. de Paris, mars 1872.

وقد ظل الصوف المادة المطلوبة أكثر من غيرها في الغرب وقد قدر إنتاج منطقة الشاوية منها عام 1864 نحو خمسة ملايين كيلو بينما تارجح التصدير بين نصف مليون كيلو وثلاثة ملايين كانت توسق نحو مرسيليا

ودانكيرك والهافر عن طريق دور فرنسية في إطار تقلبات أسعار السوق الفرنسية.

وكانت أسواق الصوف تنعقد في مدينة بين أبريل ويونيه طوال ثلاثة أشهر كل يوم خميس في شكل بورصة واسعة للاصواف يتقاطر عليها التجار الأجانب وقد بلغ تصدير الصوف بالدار البيضاء عام 1871 نحو 50 ٪ من مجموع صادراتها وكانت الدار البيضاء تشكل أواخر القرن الماضي أعظم مركز مغربي لتصدير الذرة حيث بلغ وسقها ما بين 50 و60 ٪ من مجموع الصادرات المتراوحة بين عشرة وعشرين ألف طن.

وكان المزارعون الفرنسيون أول من كون شركات فلاحية مع المغاربة للزراعة أو تربية الماشية وكانوا يعملون على حماية المزارعين المغاربة لتحريرهم من مراقبة المخزن وإطلاق أيديهم في ذلك حيث لم يكونوا يتابعون قضائيا إلا بعد إخبار السلطة القنصلية بدعوى حماية مصالح مواطنيها من الشركات والطريقة الغالبة في هذه الشركة هي أن التاجر الأوربي كان يقوم بتمويل أو دفع البذور واقتسام المنتجات بحيث كان تدخل الأجانب في توفير التقنيات الزراعية منعدما تقريبا إلى عام 1900 ولا كذلك في خصوص توريد أغراس جديدة وقد وقع العدول عن تجارب زراعة القطن في ارباض المدينة خاصة بعد عام 1867 أما في خصوص قطعان الغنم فإن المصدرين الفرنسيين أصبحوا يملكون قبل عام 1870 نحو العشرين ألف رأس مع اتساع الأراضي التي أصبحوا يملكونها حول المدينة.

وقد تأسس عام 1893 بالدار البيضاء مصنع صغير للصابون من طرف رجلي أعمال المانيين وكان سكان درعة يصنعون صابون الغاسول وقد تطور المشروع عام 1900 بمصانع جديدة ظهرت عام 1907 للسيجار أو

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لفافة التبغ ومصنعين للمياه الغازية ومصنع للزرابي فكان المنطلق الأول للصناعة بالمدينة.

ومنذ عام 1875 أسس رجل الاعمال الأمريكي جوهن كوب John Cobb بالدار البيضاء طاحونة بخارية كانت تعمل بلا مواد للاهالي أي تطحن قموحا تملكها وتبيع طحينها.

وكانت المنازعات التجارية لا تخضع للقاضي الشرعي ولا للمحتسب التي تنحصر اختصاصاته في الصناعة التقليدية اللهم إلا إذا تعلق الأمر بالمكاييل والموازين وتحديد الأسعار فالنزاع بين التجار كان يفصل فيه عامل المدينة أو الوالي نفسه وكثيرا ما يحيل القضية على محكمة تجارية تصدر أحكامها طبقا لعرف التجار وكان أعضاؤها 8 يختارهم زملاؤهم بعد تصديق العامل كممثل للسلطان ويتولى خليفة العامل السهر على تنفيذ الأحكام وإذا وقع نزاع مع تجار أوربيين يرفع التاجر القضية إلى القنصلية التي تحيلها على العامل لتفصل فيها المحكمة المذكورة فالأمر راجع في كلتا الحالتين إلى والي المدينة أو الاقليم، وقد بدأت الدار البيضاء تدخل في شبكة السياحة الدولية منذ عام 1890 إذ رغم مصاريف السفر الباهظة وهلهلة الملاحة الدولية التي كانت تتعرض لأخطار الغرق فإن السياح أصبحوا يتواردون على المغرب بعد أن كانوا يقتصرون على مرسى قريبة من أوربا هي طنجة وكان بالمدينة نزل مالبث أن تعزز بمؤسسات فندقية أخرى بلغت ثلاثة نزلات خاصة عام 1901 أهمها نزل فرنسا ثم نزل مدريد الذي تأسس منذ 1898 ثم فندق انجليزي في ملك رجل من جبل طارق وقد أسس عام 1894 (النادي الدولي لأنفا) ثم (النادي الأسباني) وملعب للبولو وثلاثة ملاعب للتنس ومركز للعبة الاوتاد وهي البولينغ (Quilles).

ARCHIVE

أما سكان المدينة فقد تزايد باطراد ففي عام 1850 كان بالدار البيضاء نحو خمسمائة من الأوربيين ارتفع عددهم إلى ما يتراوح بين إثني عشر وأربعة عشر ألفا عام 1900.

وكان الفرنسيون في عام 1873 أهم عناصر الجالية الأجنبية بالدار البيضاء حيث كانوا يشرفون على 50 إلى 60 ٪ من التجارة الخارجية غير أن الاسبان أصبحوا من حيث العدد أضخم عناصر الجالية عام 1878 (أزيد من 50 ٪) إلى عام 1907 وقد وصف نائب القنصل الفرنسي المدينة عام 1876 ملاحظا وجود ثلاثين بناية كبرى منحها المخزن للتجار الأوربيين هيأ المدينة لأن تصبح أول مدينة تجارية في المغرب (1) وقد زارها جلالة الحسن الأول في نفس هذا العام لإصدار أوامره السامية ببدء الأعمال لإحداث ميناء فتهافت تجار جدد وأحدث خط ملاحي جديد هو Valery بالإضافة إلى شركتي Forwood و Paquet وفي عام 1871 سمح المخزن بتصدير الحبوب ثم تجدد الإذن عامي 1873 و1875 حسب التقارير الاقتصادية خلال هذه السنوات عن القنصليات بالدار البيضاء.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكانت الحبوب تشمل الحمص والشعير تحمله يوميا إلى المدينة الفان إلى ثلاثة آلاف جمل بلغت حمولتها عام 1891 أزيد من ثلاثين ألف قنطار. إلا أن القلق بدا يخامر التجار الأجانب عام 1878 عندما انخفضت الأسعار الفلاحية في السوق الأوربية وحدثت في المنطقة مجاعة عقبها وباء الكوليرا (2) مات من جرائه 7 ٪ من السكان ويظهر أن سنتي 1878

---

1) (الأوربيون بالدار البيضاء) في القرن التاسع عشر (1856 ـ 1906) ـ بقلم ميج Miege وهوج Hugues طبعة لاروز Larose Paris V

2) ايركمان ـ المغرب الحديث.

و1879 كانتا أشد سنوات نصف القرن بالشاوية حيث ارتفع ثمن القمح بـ 600 ٪ وتزايد قلق الأجانب الذين نقص عددهم بالدار البيضاء وحدها من 225 عام 1878 إلى 169 عام 1880 إلى 160 عام 1884 وظلت الجالية الفرنسية مع ذلك أغنى الجاليات لأنها استمرت في صفقاتها لاقتناء الأصواف والجلود واستيراد السكر والزراعة وتربية المواشي بتعاون مع الفلاح المغربي إلا أن النكبات التي تتابعت طوال سنتين (1878 ـ 1880) أفقدتها كل قطعانها وأموالها التي كانت تقدر آنذاك بعدة آلاف من رؤوس الغنم والبقر (منها 15.000 شاة) فغادر فريق من الفرنسيين المدينة إلى فرنسا أو طنجة وبذلك انحدر عددهم من 38 إلى 12 شخصا عام 1884 وهو نفس عدد الألمان في تلك السنة بينما ظل عدد الأسبان 96 شخصا.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي عام 1887 بدأ عهد جديد في الدار البيضاء بإحداث مصالح بريدية وانتظام السفريات في الخطوط البحرية وتأسيس تلغراف بطنجة سهل الاتصال بدور تجارية بأوربا واقتناء سفن جرَّارة للميناء وإقامة منار صغير لهداية السفن وإقرار حرية إصدار القمح والشعير طوال ثلاث سنوات (مقابل رسوم للتصدير تبلغ خمسة عشر ريال لفنيق أوصاع من القمح وستة ريال لنفس الكيل من الشعير) وأصبحت سنة 1890 أنصع سنة في هذا القرن جعلت من الدار البيضاء أول حاضرة تجارية في المغرب بمرسى ترابط فيها في آن واحد عشرة إلى خمسة عشر مركبا شراعيا تسهم في الإشراف على نشاطها عشرون دارا تجارية أوربية وقد ارتفعت الجالية الأوربية من 318 نسمة عام 1890 إلى 428 عام 1893 كان للاسبان فيها حصة الأسد (300 شخص).

غير أن الظروف الاقتصادية والسياسية اتسمت بالتقلب وعدم الاستقرار لا سيما بعد وفاة الحسن الأول فلم يصل عدد الأجانب لأكثر من 450 نسمة عام 1895 حيث ظهرت الكوليرا من جديد ففقدت المدينة 65 من سكانها طوال ثلاث سنوات (إلى عام 1898 ومع ذلك فإن مرسى الدار البيضاء كانت عام 1902 في الصف الأول من موانى المغرب بلغ عدد السفن المرابطة فيها عام 1904 سبع عشرة سفينة بسبب جودة الموسم الفلاحي الذي كان يكيف مستوى وبعد النشاط التجاري وهنالك ارتفع عدد السكان الأوربيين من 477 عام 1901 إلى 570 عام 1905 وقد لوحظ أن أعلى زيادة نسبية كانت للجالية الألمانية التي ارتفعت من شخصين عام 1878 إلى 30 عام 1905 وأصبح أفرادها متكاتفين أكثر من زملائهم خاصة منهم الواردين من هامبورغ وبريم ومع ذلك ظل الأسبان يشكلون ثلثي مجموع السكان الأوربيين واستمر التجارالفرنسيون يصدرون الأصواف والجلود بينما شاركهم الألمان والنجليز جبل طارق في وسق الحبوب الى الخارج إلى أن طرأت أزمة على سوق الصوف نظرا للأزمة العالمية آخر القرن الماضي فتقاعس الفرنسيون عن نشاطهم (*).

ويمكن القول بأنه في أوائل النصف الثاني من القرن الماضي تحولت مدينة الدار البيضاء من قرية صغيرة بسيطة إلى حاضرة حقيقية استعرت فيها حمى البناء والتشييد فلم يعد العرض يغطي الطلب نظرا لكثرة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

*) Crise lainière à la fin des XIX.

1) Maurice Colral, le terme sur la laine peignée et la crise de Roubaix in Revue Polit. et Parlem., Janvier 1901 (p. 104).

2) Tromson R.J., Wooe Prices in Great Britain, 1902.

الواردين من الأجانب وتعقدت الازمة عام 1867 حيث ارتفع سعر الكراء وأصبحت المخازن عام 1874 لا تسع حاجات التجارة وشارك المخزن في حركة البناء مؤجّرا المتاجر بنسبة ستة في المائة من ثمن التكلفة وتضايقت الأراضي البور أو المحروثة حول المدينة سنة فسنة وأصبح الواردون مع ذلك لا يجدون بعد 1887 أي مكان لترويج تجارتهم بأي ثمن وبذلك أصبحت معالم المدينة تتغير باستمرار في كل عام وأصبحت النوالات تزحف نحو الجهة الغربية يقطنها بالإضافة إلى رجال الحرف والحمالين مهاجرون من البادية وظهر منظر جديد هو أكداس البضائع في الازقة والطرق في مثل علو المنازل حيث بلغت الواردات في بعض الأحايين أزيد من 120.000 كيس وقد تفضل السلطان آنذاك تلبية لطلب التجار الأوربيين بمد حدود المدينة أي بتوسيع الشبكة البلدية فتقرر إقامة سور في الجنوب الغربي تم بناؤه عام 1892 وفصلت المتاجر عن المساكن حتى لا يتضايق التجار من حركة القوافل التي تحمل السلع ووجد التجار أنفسهم وراء النوايل بعيدين عن مركز الأعمال وعن الميناء فوجهوا عرائض للمفوضيات بطنجة يطلبون إبعاد النوايل فرفض السلطان واضطر الأجانب للبناء وراء الاسوار حيث برزت العناصر الأولية للدار البيضاء العصرية من ضمنها بعض الفنادق وطاحونتان وضيع بعيدة عن المدينة ومركز للصيد وتضاعفت الفنادق عام 1900 وأصبحت الازقة تنظف يوميا الأمر الذي لم يمنع من ظهور الوباء عام 1878 فتضاعف النشاط البلدي لتطهير الشوارع تحت سلطة والي المدينة معززا بالسلك القنصلي ودخلت في سلك الاستعمال ثلاث عربات نقل الأزبال تشتغل يوميا بل وقع ترصيف بعض الطرقات من عام 1884 إلى 1888 بالإضافة إلى حفر بعض قنوات الماء الحار لتصفية مجاري المدينة إلا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أن السلك القنصلي بدأ بحكم التدخلات السياسية الأُوربية النابعة عن الأوفاق السرية يحشر أنفه في بعض القضايا الوطنية فتدخل القنصلان الاسباني والانجليزي عام 1863 ـ بطلب من التجار الأجانب ـ لفض الخلاف بين قائد مديونة وقبيلته ومثل ذلك وقع غداة وفاة السلطان الحسن الأول عام 1894 حيث خيمت قبيلة الشاوية في أرباض المدينة لحمل واليها على تسريح المعتقلين من أفرادها وكان الوالي آنذاك هو القائد بركاش الذي تدخلت الجالية فعزل من منصبه محتفظا بأمانة المرسى بينما شغل منصب الوالي القائد أحمد بن العربي ومع ذلك فإن العلاقات ظلت طيبة بين الأهالي والتجار الأجانب حسبما يتجلى من تقارير القنصليات إلا أن المحميين (3) تكاثروا وبلغ عددهم عدة آلاف بين مستخدمين وخدمة ومشاركين فلاحيين مما أضفى على المدينة طابعا مغايرا للحواضر المغربية الأُخرى حتى زعم وزير فرنسا المفوض في طنجة عام 1875 ان علائق التجارة تربط هذه المنطقة بأُوربا ومهما يكن فإن الحياة اليومية للمواطن المغربي بدأت تتغير متأثرة ببعض المظاهر الأُوربية كتطور تقنية الأعمال التجارية واستعمال الحوالات التجارية التي لم تكن معروفة قبل 1870 وانتشرت الاسبانية بين الأهالي نظرا لوفرة التجار الاسبان كما انتشر استعمال الغوليات (أي الكحوليات) ومنذ ذلك بدأ العنصر الاسرائيلي يلبس الزي الأُوربي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

3) من ذلك أن الوزير الانجليزي ساطو(Satow) عندما زار الدار البيضاء عام 1894 استقبله أزيد من 130 مغربيا من المحميين الانجليز الذين يبلغ عددهم بإضافة أفراد عائلاتهم إلى نحو السبعمائة.

ونستنتج من هذا العرض الوجيز أن التجارة الأُوربية ساعدت على قيام مدينة الدار البيضاء فتوارد عليها طوال نصف قرن تجار أجانب وأهال بعضهم من البادية وآخرون من مدن مختلفة وأصبح عدد السكان يمثل في مختلف الحقب نحو أربعين ضعفا من عدد أفراد الجالية الأجنبية فارتفع هذا العدد من 4.000 عام 1866 إلى 8.000 عام 1878 إلى 14.000 عام 1890 إلى 24.000 عام 1905.

وفي أواخر القرن الماضي أصبح الأجانب يشكلون مجموعة متماسكة اجتماعيا ومنذ أول هذا القرن ارتفعت بينها حواجز فظهرت منتديات كفروع لجمعيات أُوربية غير أن الفرنسيين أسسوا منذ عام 1885 جماعة الحلف الفرنسي بسبعة وثلاثين عضوا ما لبث عددهم أن ارتفع إلى ستة وأربعين كما أن الألمان كونوا فرعا للرابطة البحرية Ligne Maritime ثم شكلوا عام 1905 جمعية لتطوير المصالح الألمانية بالمدينة وقد استقرت بالمدينة البعثة الكاثوليكية منذ عام 1868 (بعد أن كانت مفوضية البعثة في طنجة توجه رسلا لها بين الفينة والأُخرى أضيفت إليها بعثة بروتستانتية هي بعثة الشمال الإفريقي عام 1881 ووقع تدشين أول كنيسة عام 1891 (للفرنسيسكان).

وهكذا نرى أنه في ظرف خمسين سنة قطن الدار البيضاء من الأجانب (بإضافة المواليد التي وصلت إلى 155 قبيل مؤتمر الجزيرة) 2192 من الأُوربيين مما جعل من المدينة أكبر موئل ـ بعد طنجة ـ لهذه الفسيفساء من الجنسيات التي بدأت تتوالد بكثرة حيث وصلت بعد عام 1890 إلى خمسة مواليد للأسرة الواحدة.

وأصبح مرسى الدار البيضاء يشكل منذ 1907 أكبر ميناء تجاري بالمغرب غير أن الجالية الأوربية ارتفعت من ألف عام 1907 إلى 5.000 عام 1909 ثم 9.000 عام 1912 بينما قفز الرواج الاقتصادي في ظرف 5 سنوات (1908 ـ 1913) من 19 إلى 80 مليون فرنك وبعد توقف الهجرة خلال الحرب العظمى تواردت رؤوس الأموال الأجنبية وتضاعفت المضاربات وأثمان الأراضي الزراعية فأسست الضيع والعمارات وتزايد عدد سكان الحاضرة بهجرة الأوربيين والبدو حتى ارتفع من 35.000 عام 1907 إلى (47.000 عام 1912 و106.000 من بينهم 35.000 أوربي) عام 1926 بسبب تفقير البادية وتهافت سكانها على الميناء والمصانع والاوراش انتجاعا للعيش.

وقد تصاعد من 20.000 ألفا عام 1325 هـ / 1907 إلى 472.920 عام 1952 بخصوص المغاربة المسلمين وحدهم يضاف إليهم 74.783 من المغاربة اليهود الذين كانوا يشكلون آنذاك أكثر من ثلث سكان المغرب الاسرائليين الذين وجدوا في بلادنا ملجأ أمينا من عسف وعبث أوربا منذ النفي العام بالأندلس أي منذ أوائل القرن التاسع الهجري.

وقد بلغ سكان الدار البيضاء حسب إحصاء 1975 2.010.800 نسمة من جملة 17.305.000 للمغرب كله ومعلوم أن تقديرات المؤرخين تراوحت عبر التاريخ بين ثلاثة ملايين و30 مليون وأجريت عام 1917 إحصاءات أسفرت عن تسجيل 5,5 في منطقة النفوذ الفرنسي ولاحظ كوتي Gautierأن مغرب القرن التاسع الميلادي كان أكثر عمرانا كما أكد كوستاف لوبون أن عددهم في عصره وصل إلى سبعة ملايين وأوصلهم صاحب (النخبة الازهرية) إلى ثمانية وكذلك ايركمان (في المغرب الحديث) بينما جازف

موليراس Moulieras فأوصلهم إلى ما بين 20 و25 مليون (عام 1895) وقد أكد طيراس أن السلام الذي عاش فيه المغرب طويلا كان من شأنه تضخيم عدد السكان حيث وصلت حظائره إلى 50 مليون رأس عام 1859.

ولم تكن مدينة الدار البيضاء تتوفر إلا على عملاء قنصليين تجاريين خلفهم نواب قناصلة محترفون ثم قناصلة فكان للدار البيضاء الاسبقية في هذا المجال على الرباط والصويرة إذ منذ عام 1900 أصبح فيها أربعة قناصل وتسعة نواب قناصل أو مأمورون قنصليون هم القناصلة الأسبان والانجليز والفرنسيون والألمان ونواب قنصليون عن النمسا والولايات المتحدة وإيطاليا وبلجيكا والبرتغال والبرازيل والدنمارك وهولندا والسويد والنرويج (راجع B. Meakin, the Land Of The Moors فيريو فالفرنسيون هم فيريو P. Ferrieu إلى عام 1866 / جيلبير Gilbert من عام 1866 إلى عام 1869 / فليش Flesh من عام 1869 إلى 1877 / سوفير Sauvaire من 1877 إلى 1879 / دوموفوازين De mauvoisin من 1880 إلى 1882 / كرافري Craveri من 1883 إلى 1888 / كولومب Colomb من 1886 إلى 1897 / بينار Pinard من 1898 إلى 1901.

والقناصلة الإنجليز هم : وولدريج Wooldrige من 1857 إلى 1868 / دوبوي Dupuis من 1868 إلى 1872 / لابين Lapeen من 1872 إلى 1884 / هونتير Hunter من 1884 إلى 1890 فيرنو Fernau من 1895 إلى 1897 / ماكلين Maclean من 1893 إلى 1906.

ويضاف إلى هؤلاء مأمورون في القنصليات الفرنسية والإنجليزية والألمانية في حين أضيف إلى القنصلية الإسبانية عام 1884 بعد معاهدة

تطوان شخص مكلف في القنصلية بجباية قسط من رسوم الجمارك لأداء تعويضات الحرب التي تحملها المغرب آنذاك.

وتوجد سلسلة من السجلات وضعت في بلدية الدار البيضاء تحمل عقود الحالة المدنية المحررة في نيابة قنصلية ثم قنصلية فرنسا بالدار البيضاء منذ 1870.

أما الأطباء فقد استقر بالمدينة عام 1873 الدكتور فريزار Frezard حيث مكث أزيد من خمسة أعوام وأصبح للمدينة منذ عام 1881 طبيبان قبل أن تتوفر كل قنصلية اسبانية على طبيب عسكري هو Jordan جوردان ابتداء من عام 1889 ثم القنصلية الفرنسية بطبيبها ميرل Merle وانضاف أطباء خصوصيون حيث أصبح للمدينة عام 1904 خمسة أطباء يتقاسمون زبناء المدينة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما المعاهد الدراسية الأجنبية فإن أطفال الجالية كانوا يوجهون إلى أوربا لمتابعة دراستهم أو في طنجة ثم فتحت مدرسة الفرنسيسكان الابتدائية عقبتها مدارس خاصة بينما أسست مدرسة الحلف الاسرائيلي عام 1897 وكانت تقبل تلاميذ من جميع الديانات.

الرباط **عبد العزيز بنعبد الله**